

حكاية عائلة مصرية

مات المجد

بعده بعالم واحد .. ماتت المجدة

اكتمل بياض شعر رأس الأب !

ثم لم تلبث الأم أن مرضت

فاختفت البسمة تماما من البيت

ورغم حرص الجميع على شفاء الأم ،

فقد غيَّ بها الموتُ فى إحدى ليالى الصيف

خيم الحزن الشديد على الأب والولد والبنتين

تقاعد الأب أخيراً عن العمل

وتناقص إلى حد كبير دَخلُ الأسرة

تعثر الابن فى دراسته فهجرها ،

وأصر على السفر للعمل بالخارج

ظل يرسل للأسرة فى كل شهر مبلغا من المال

وضجأة قطعه ، وأخبرهم أنه اضطر للزواج !

تدهورت صحة الأب كثيرا ،

ولم يعد يُسكِّ بزمَام الأمور

المبتان تواعدان شابين

أحدهما ميكانيكى سيارات ،

والآخر ما يزال طالبا فى الجامعة

أصبح الأب يرى ، ويسكت ..

كان من قبل يثور ، ويضرب !

ذات يوم .. أحضرت المبت الكبرى حبيبها ،

ليخطبها من أبيها

تزوجت وأنجبت بعد سبعة شهور فقط

صار يحتفى بقدومها مع طفلها إلى المنزل

بعد فترة .. علم أن ابنته الصغرى

قد تزوجت عرقيا !!

سقط مريضاً ، وابتلع الألم

لكنها جاءت إليه باكية واعتذرت فسامحها

طلب منها أن تُحضر زوجها إلى المنزل

ليعيش الثلاثة معا ..

عندما أنجبت طفلة جميلة ،

أخذها بين ذراعيه بحنان بالغ ، وقال :

= إنها تشبه جدتها كثيراً !

زوج ابنته ولد جاد ، وهو يذاكر باجتهاد

حاول أكثر من مرة أن يكلمه ،

لكني حوّلت الزواج من عرضي إلى شرعي

لكن الفرصة لم تكن تواتيه

كما أنه كان أضعف من أن يلح !

ذات يوم ، صلى الفجر ،

وتمدد كعادته على السرير

وعندما ذهبوا يدعونه للإفطار ..

وجدوه ميتا ..

المقريه النائيه

لم يكن يتخيل على الإطلاق

أن تلك المقريه النائيه ،

التي عين في الموحدة الطبيه بها

سوف تشكل جزءاً أساسياً من حياته .

فى المشهور الأولى ..

رأى كل شئ حوله يبعث على القرف والاشمئزاز ،

حتى أنه لعن اليوم الذى تفوق فيه ،

والتحق بكلية الطب .

أين الآمال الكبرى فى عيادة فسيحة بوسط البلد ،

والتردد مع زملائه على النادى ،

وتكوين صداقات وعلاقات مع أرقى عائلات العاصمة ؟

تبخرت كلها

وهو يجلس فى تلك العيادة الحقيبة ،

التي توجد فى سقفها مروحة لا تعمل ،

ويقف على بابها تمرجى بجلباب أزرق ،

وطاقيه صوف !

أما المترددات على العيادة فكلهن بلا استثناء

سيدات عجائز،

أو متوسطات العمر بكروش منتفخة ،

ورائحة ممزوجة بالطين وروث البهائم
و ذات يوم .

دخلت مع خالتها فتاة فى حوالى العشرين

عيون خضراء واسعة ،

وضفيريّتان تتدلى إحداهما على صدرها ،

والأخرى على ظهرها حتى أسفل الوسط .

لم يستطع ان يرفع عينه عنها طوال الوقت

أما هى فكانت تبتسم بهدوء ،

وتنظر إليه بثبات .

فور خروجها نادى على المترجى ،

وراح يمطره بالأسئلة عنها ..

- آه البنت أم عيين خضره

بنت عم فاضل ،

صاحب الطاحونة ،

ناس طيبين وفى حالهم .

ولهم ولد سافر إلى العراق منذ عدة سنوات

وانقطعت أخباره

كان يريد أن يلتهم عنها كل خبر

راح يتلذذ بكل التفاصيل ،

التي لم يخرجها المترجى الملعون إلا بصعوبة

فى الزيارة التالية لخالتها □سألها عنها ؟

ولماذا لم تحضر معها ؟

ثم تجرأ ، وسأل :

— هل هى مخطوبة ؟

— وإذا تقدم هل يوجد مانع ؟

كان الطريق خالياً ..

ولم تمض عدة أيام

حتى كان يجلس إلى جوارها فى كوشة الفرع ..

ولم يعد يكره القرية التى عين فيها □.

حدث في حديقة الحيوان

كنت متجها لزيارة أحد اصدقائي
وعندما توقف الأوتوبيس
فى اشارة مرور طويلة ،
أمام حديقة الحيوان
ترددت لفترة ، ثم قررت النزول
اتجهت لشباك التذاكر
وقطعت تذكرة
ودخلت

كان يوم إجازة
والحديقة مزدحمة بالزائرين
وأكثرهم من الأطفال
تجولت قليلاً بين بيت الفيل ،
وجبلداية القروود
ولم أتوقف أمام الماسد طويلاً..
لأننى لا أحب ان أرى انكسار هذا الوحش المكاسر
أحسست بالتعب
فذهبت إلى مسطح أخضر
تجلس فيه بعض العائلات
وحولها الأطفال يلعبون بالكرة

جلست بجوار عائلة
الدأب ، والدأم ، وثلاث بنات
كانوا يراقبون ابنهم ، وهو يلعب
ثم نشروا مائدتهم على العشب
وأخرجوا أكياس الطعام
وراحوا يتقاسمونها
فوجئت بابنتهم الصغرى
تحمل لى بعض السندويتشات على طبق ورقى
شكرتها بشدة ، لكنها أصرت على تركه
وعادت لأسرتها
كنت بالفعل جائعا ، فأكلت
السندويتشات لذيدة جدا
وكان على أن أذهب لأشكر الدأب

سألنى : هل أنت وحدك

قلت : نعم

دعاني للعب دور كوتشينه

قبلت

الترف الجميع حولنا ، بما فيهم الدابن

ورحنا نضحك ، ونحدث

عن عملى ، وبلدى ، ثم عن حياتى كلها..

الأسرة طيبة جدا ، ومحافظه

والمبذات مؤديات ، وجماليات

قالوا لى : إن الكبرى مخطوبة

وستتزوج قريبا فى مدينة أخرى

أما الوسطى..

فكانت تنظر فى الأرض

حين أنظر إليها..

عاودت شكر الأب والأم على المسندويتشات

قالت الأم بحنان بالغ:

- على ماذا يا بنى

هذا شء بسيط ،

وأنت فيما يبدو ابن حلال

وتستاهل كل خير..

أحسست أن أمى هى التى تتحدث

وتمنيت لو ألقى بنفسى فى حضنها

أعطيت الأب عنوانى ، ورقم تليفونى

لم تمض سوى أيام قليلة

حتى زرتهم فى منزلهم

رحبوا بى بشدة

كأنهم يعرفوننى من زمن طويل..

سألنى الأب:

- هل نحضر لك لقمة ،

قبل أن نشرب الشاى معا ؟

وجدتنى أقوله له:

- أنا جائع بالفعل

لكن يشرفنى يا عمى

أن أطلب يد ابنتك الوسطى!

ابتسم ، ولم يرد

ثم قام على الفور ، واتجه إلى المطبخ

سمعت زغردة الأم

تملاً المكان بفرحة..

كنت فى أشد الحاجة لسماعها.

ريپورتاج الحب الأول

فى غمرة احداث الجريدة
ورئيس التحرير مشغول للغاية
فى تجهيز العدد الاسيوى
وتليفونات المسئولين تلاحقه
للإطمئنان حول نشر بعض الموضوعات ،
وحذف بعضها..
دخل عليه المحرر الجديد
وكان قد عينه حديثا
بناء على توصية وزير سابق
وعندما رفع رأسه لسمع منه
بعد ان خلع نظارته
وجده يقول له بكل ثقة:
— هل تسمح لى ياريس
ان اقوم بتحقيق
مع كبار الشخصيات فى المجتمع
حول حبهم الاول ؟
لم يصدق الرجل ما يسمع
وعاد فوضع النظارة على عينيه
ليتأمل الشاب من جديد
— ماذا تقول ؟
— اقول اننى اريد ان اقوم بعد اذنك
بتحقيق صحفى موسع
حول الحب الاول..
قاطعه متهمكا:
— وكيف جاءتك هذه الفكرة العبقريه ؟
— لان الحب الاول ياريس ،
كما جاء فى الانترنت ،
هو اهم حدث يقع فى مرحلة المراهقة
ويظل [] يؤثر على فكر الانسان وسلوكه
طوال مراحل العمر .
— يعنى حضرتك ترى
انه [] يؤثر علينا الان
ونحن نقوم بهذا العمل ؟!
— طبعا يا فندم .
امسك رئيس التحرير نفسه
من الانفجار فى الشاب

وتذكر توصية قريبه الوزير

وقال له بهدوء:

— طيب يا حبيبى..

دعنى المان وسوف نتحدث عن ذلك

فيما بعد.

خرج الشاب مطمئنا

وعاد رئيس التحرير للانهماك فى عمله

وحين عاد بعد منتصف الليل الى منزله

كانت زوجته قد تركت له عشاءه المعتاد على السفرة

جلس وحده لياكل..

وراح يستعيد ما حدث مع المحرر الشاب

وابتسم من تفاهة الموضوع

وتهور المحررين الجدد

لكنه حين القى نظرة على صورة زفافه المعلقة

لم يستطع ان يبعد من ذاكرته

طيفا عزيزا عليه:

سعاد بنت الجيران

بعينيها الواسعتين

وضفيريتهما المكتنزة

وضحكاتهما التى لا تنسى..

ان زوجته تشبهها الى حد كبير..

بل ان كل النساء اللاتى احبهن

كن نسخا منها..

وحتى سكرتيرته الحالية

لها نفس عينيها

ولعل هذا هو السبب الكامن

الذى جعله يتجاوز عن الخبرة

ويختارها من بين جميع المتقدمات!

أبناء البيت الكبير

كانت امراض الشيخوخة
قد زحفت بالفعل على الحاج سرحان
ابن الثمانين ، وتاجر الشموع بالغورية
أما روحه فقد ضعفت كثيرا
نتيجة سنوات العمل المتواصلة
والتي لم يأخذ فيها إجازة ليوم واحد

**

كان الرجل كثير الأبناء
سبعة ذكور ، وأربع بنات
وقد استأجر لهذا بيتا كبيرا
فى حى الدرب الأحمر العتيق
وكان إذا أراد ان يزوج أحد ابناؤه أو بناته
يخصص له غرفة مستقلة
لكن العائلة كلها كانت تجتمع على الطعام:
الأب والأبناء على طبلية ،
والحاجة فاطمة والمبنات على طبلية أخرى
والجميل فى الموضوع
أن أحدا لم يكن يشكو أو يتذمر
وحين عرض أحدهم على الوالد
أن يسمح له بالمساهمة فى مصاريف البيت
نهره بشدة ، واعتبر ذلك إهانة بالغة !

**

ومع مرور الوقت ، وتغير الأحوال
أخذ العائد من تجارة الشموع يتراجع
لكن الحال ظل فى البيت الكبير كما هو..
ويرجع الفضل فى ذلك للحاجة فاطمة
فقد كانت تمسك بزمام الأمور
وتجيد توزيع الدخل مهما قل..
وتحسم بعقلها الدراج أى أزمة تتعقد
والأهم أنها لم تكن تثقل على زوجها

بهموم المعيشة ، ومشاكل الأولاد

**

و ذات ليلة باردة ، جاء الموت
فانتزع الحاجة فاطمة من هذا البيت الكبير
ولم يستطع الحاج سرحان
أن يعيش بعدها سوى عدة شهور
حتى لحق بها..
ويقال إن كل تجار المغورية مشوا فى جنازته
فقد كان تاجرا أميناً وشريفاً
وعقب انتهاء مراسم العزاء
كان على أبنائه أن يعقدوا فى منتصف الليل
جلسة طارئة
ليبحثوا أحوالهم ، ويختاروا من يقودهم ؟
وبعد أخذ ورد ، وتجادب وصلح..
وافقوا على أن يتولى الأكبر أمور البيت
رغم طيبته الواضحة ،
وعدم تمكنه تماماً من السيطرة

**

لذلك لم تمض فترة طويلة
حتى بدأ الشقاق والنزاع
وعلت أصوات لم تكن تلو من قبل
وتدخل فى المعمعة
زوجات الأبناء وأزواج البنات
وراح البعض يطالب بالاستقلال بنفسه
سواء فى الدخل أو المصروف
وكان البعض حاد المزاج
فصار لا يكلم إخوته
وإذا سلموا عليه .. لم يرد السلام!

**

وهكذا تغيرت الروح التى كانت سائدة
فى البيت الكبير
فبعد أن كانت السماحة والمقناعة والمودة
هى التى تسرى بين الجميع
حل محلها الحقد والحسد والمشراة
وصار كل منهم لا يتحمل كلمة
أو حتى مجرد نظرة من أخيه
ثم جاءت المضربة القاضية:
إعلان رسمى بضرورة إخلاء البيت
فى أقرب وقت
لأنه آيل للسقوط..
وعلى الفور
حمل كل منهم أغراضه
وكرأكيبه..
وانتقل إلى شقة أو غرفة صغيرة
تقع فى أحياء مختلفة ، ومتباعدة
ولم يعودوا يتقابلون إلا صدفة

أو حين يقع لأحدهم حادث
أو أحياناً — وهذا قليل جداً —
فى زفاف أحد أبنائه!

هبطت درجة الحرارة
إلى ما يقرب من خمس درجات
واستمر المطر فى المهطول
أغلق على نفسه باب الغرفة وشباكها
وعندئذ بدأت دقائق ساعة الحائط فى الارتفاع
حتى صارت هى الصوت الوحيد الذى يسمعه

**

استلقى على السرير
وتدثر بأكثر من بطانية صوف
حاول أن يتسلى بمشاهدة شـء فى التلفزيون
وجد البرامج الحوارية مملة ،
والأفلام مكررة

**

سحب كتابا لم يكن قد أنهى قراءته
لكن أصابعه المتجمدة
لم تقو على تقليب صفحاته
أعادته إلى موضعه

**

أمسك بأجندة التليفونات
محاوِلا التقاط رقم صديق
يثرثر معه عن هذا البرد الفظيع
أو يتبادل معه بعض الأخبار والذكريات
لكنه وجد الأرقام شبه باهتة
وكلما توقف عند اسم بعينه
تذكر له أحد المواقف السخيفة
التي لا يصدر مثلها من صديق حقيقى

**

ما هذه البرودة التى تسرى فى عظامه ؟
ولماذا لا يحد منها هذا الكم من الصوف ،
الذى يحيط بجسده ؟
وهل يمكن فى هذا الجو أن يأتى النوم ؟

**

النوم..
لا مجال له على الإطلاق
وقد صارت زخات المطر الممتالية
تصك خشب الشباك

كما لو كانت ذئبا جائعا
يحاول أن يقتحمه بالقوة
أما دقائق ساعة الحائط
فهى مستمرة فى ضرباتها المنتظمة ،
والرتيبة ،
والتي تحولت مع مرور الوقت
إلى ما يشبه دقائق طفلة
فى مارش عسكرى

**

لماذا لا يذهب إلى المطبخ
ويقوم بتحضير وجبة ساخنة
لعلها تبث بعض الحرارة فى جسده ؟
لا شء فى المثلجة سوى عدة بيضات
وعلى الرف زجاجة زيت
أما الخبز فقد جف فى كيسه
لا يهم..
وليذهب النوم إلى المجحيم!

**

نجحت المحاولة
وساعدت نار البوتاجاز على تدفئة المكان قليلا
لكن الأهم
أن تناول تلك الوجبة أشاع المدفء فى معدته ،
ومنها إلى أطرافه
وحين شرب كوبا ساخنا من الشاي
تأكد من أن النوم قد طار من عينيه تماما

**

جلس على المكتب
وفتح الكمبيوتر
هناك بعض الرسائل غير المهامة
وبعض الصور التي يتباهى بها أصحابها
لكنه سرعان ما شعر بالملل ، فأغلقه
عاد إلى السرير
البطاطين المصوف باردة جدا
وهى على نفس مستوى برودة قدميه
ماذا سيفعل الآن ؟

لا شء

وتساءل:

ماذا لو كانت له الآن رفيقة ؟
يحدثها ، وتحدثه
ويتقاسم معها مقاومة هذا الشتاء القارس ؟
لكنه كان المسئول الرئيسى
عن فراق كل من عرفهن
رغم أن فلانة كانت أفضل..
وفلانة كانت أجمل..
وفلانة كنت أطيب..
أخيرا ذهب كلهن ،

وبقى هو وحده [عانى البرد ،
إنها فيما يبدو عدالة السماء!

**

بعد بزوغ الفجر بأكثر من ساعة
وجد رأسه يثقل
وبصره يضعف
وقواه تخور
وفجأة استغرق فى نوم عميق
عميق جدا
لم يصح منه إلّا مع عصر الميوم التالى..

هابيل وقابيل

قابيل — إلى أين أنت ذاهب ، يا هابيل ؟
 هابيل — إلى أعلى التلة ، المتى بجوار المنهر
 قابيل — وما هذا الخروف الذى تسحبه ؟
 هابيل — إنه قربان
 قابيل — قربان ، لمن ؟
 هابيل — للخالق ، جل وعلا !
 قابيل — ومن طلب منك ذلك ؟
 هابيل — لا أحد
 قابيل — إذن لماذا تفعله ؟
 هابيل — من قبيل الشكر
 قابيل — الشكر على ماذا ؟
 هابيل — على ما أنعم به على
 فقد بارك لى فى رزقى
 ووهبنى الزوجة الصالحة
 وجعل حياتى راضية مرضية
 قابيل — ولماذا لا أفعل أنا نفس المش ؟
 ألسنا إخوة ، وأنت لا تفضلنى فى ش ؟!
 هابيل — حسنا ، يا أخى
 ومن حقت أن تفعل
 وعسى الله أن يتقبل منا جميعا

وهنا أسرع قابيل إلى مزرعته
 وتخير من بين أغنامه
 كبشا أضخم من خروف أخيه
 وعندما وصل إلى نفس التلة
 وجد أن أخاه قد ذبح خروفه فوق صخرة
 وتركه ، ورجع إلى بيته
 قام قابيل بذبح كبشه
 ووضعها فوق الصخرة ،
 بعد أن أزاح خروف أخيه على الأرض !

فى صباح اليوم التالى
 عاد كل من الأخوين إلى التلة
 فلم يعثر هابيل لخروفه على أثر
 فعلم أن الله قد تقبله منه
 أما قابيل فوجد الكبش الضخم فى مكانه
 دون أن يمسه وحش مفترس
 أو طير كاسر
 فأدرك على الفور أن الله لم يقبل قربانه
 بينما تقبل قربان أخيه

أكلت الغيرة قلب قابيل
 وصمم على ضرورة التخلص من أخيه
 الذى فضله الله عليه

ولم يدرك الشقى
أن الله [أوتى فضله لمن يشاء
وخلف إحدى الأشجار المكتنزة
التي تقع فى طريق عودة أخيه
ظل مختبئاً خلفها ، وفأسه فى يده
وحين أصبح هابيل على بعد خطوات منه
انقض عليه بكل حقد وجسارة
وحطم بالفأس رأسه
فتناثر دمه على الأرض

تفاجأ قابيل من رؤية الدم
ومن سقوط أخيه جثة هامدة
وبدأ يشعر بارتباك شديد
خوفاً من ان يجيء أحد أفراد أسرته
ويشاهد ما فعله بأخيه!
إذن ماذا يفعل
فى تلك الجريمة التى كانت
أول جريمة قتل على ظهر الأرض ؟

وهنا بعث الله بغراب
وجد غراباً آخر قد مات
فراح يحفر فى التراب
حتى واره..
أخذ قابيل نفس المفكرة
وقام بتنفيذها مع جثة أخيه
فحفر لها حفرة فى الأرض
والمقاهى فيها
ثم أهال عليها التراب حتى اختفت تماماً

رجع قابيل إلى بيته
كان مضطرباً للغاية ، ومحطم الأعصاب
وعندما لاحظت زوجته ارتبأكه
سألته عن السبب
فاعترف لها بجريمته
لكنه شدد عليها ألا تخبر أحداً
وخاصة أبويه : آدم وحواء
حتى لا يحل عليه غضبهما
لكن الجريمة ما لبثت أن عرفت بكل تفاصيلها
ولم تقتصر على غضب الأسرة فقط
بل شملت لعنة الإنسانية كلها!

حديث عصفورين

— هل رأيت الكويرى الجديد
 الذى أقاموه على المترعة ؟
 — لمحته يسرعة وأنا عائد بالأمس
 يقال إنهم سيقيمون بجانبه سوق خضار
 — وهذا يعنى أنه سيكون مزدحما
 — فقط فى أيام السوق
 أما فى باقى الأيام
 فسوف يمكننا أن نلتقط منه الكثير
 — لكن ماذا سيفيدنا من بقايا الخضار ؟
 نحن بحاجة إلى الحبوب
 — الحبوب لم تعد توجد إلا فى أطراف الحقول
 أو على الطريق
 بعد أن ينقلوا حزم القمح والشعير
 — المشكلة أن الغربان
 ما عادت تترك لنا شيئا نلتقطه
 — لكننى سمعت أن المبيدات
 تقضى على الكثير منها
 — ياريت تقضى عليها كلها
 فهى طيور شرهة جدا ، ومؤذية
 ولما تهتم إلا بمصلحتها
 لكن .. قل لى :
 كيف الحال مع عروستك الصغيرة ؟
 — هى بخير
 لكنها أصبحت تتطلب الكثير
 — ماذا ، بعد أن بنيت لها عشا كبيرا ؟
 — إنها كما تعلم عصفورة شابة
 ومثل كل جيلها
 تريد أن أصحابها فى نزوات بعيدة
 — ومتى يحين موعد بيضها ؟
 — ربما بعد عشرة أيام

_____ حسنا .. سوف تفرج كثيرا بالببيض

وتحب أن تحتضنه

وساعتها تريحك

_____ بالعكس .. أنا مرتاح معها جدا

فهى عصفورة جميلة وخفيفة الدم

ولما تتوقف عن المزقزة

_____ لا حرمك الله منها

ومتعكما بالسعادة

ورزقكما بالعصافير الكثيرة

التي تملأ عليكما العش

_____ عقبالك أنت أيضا

وبالمناسبة .. لماذا لم تتزوج حتى الآن ؟

_____ الواقع أننى ما زلت أبحث ..

والمشكلة أن متطلباتى صعبة قليلا

_____ لا تتشدد يا رجل !

فالعصفورات الجميلات كثيرات

وأى واحدة تتمنى عصفورا مثلك

_____ كذلك عندى مشكلة العش

_____ هل اخترته ، ام ما زلت تبحث ؟

_____ كانت عينى على عمود الكهرباء

لكننى فوجئت بسقوطه فى حادث

_____ ولماذا لا تقيمه مثلى فى شجرة ؟

_____ أخشى أن يقرروا قطعها

_____ وما رأيك فى أعلى المشرقة التى هناك ؟

_____ سيكون فى متناول أيدي الضيوف ،

وليس بعيدا عن شقاوة الأطفال

_____ عموما ، إذا ظهر أمامى عش مناسب

فسوف أحجزه لك

_____ لا أدرى كيف أشكرك ؟

_____ لا تقل هذا ، فأنت مثل ابنى تماما

_____ ربنا يمتعك بالصحة ،

ويرزقك دائما بحبات القمح والشعير !

